إصلاحات دقلديانوس ونتائجها: (أول تاريخ العصور الوسطى الاوربية)

م م ابرار محمود صالح /قسم التاريخ/كلية التربية للبنات

ولد دقلديانوس في اقليم دلماشيا من أب فلاح، ثم ألتحق الخدمة العسكرية في الجيش وتقلد عدة مناصب عسكرية ثم أرتقى الى منصب الامبراطور، وتميزت الامبراطورية خلال عهده بأمرين: أولهما تركيب الجيش الروماني من عناصر غير رومانية، وثانيهما الدور الذي كان يلعبه الجيش في سياسة الامبراطورية. وكان دقلديانوس متفهماً لمشاكل عصره، ومدركا لمشكلات الامبراطورية التي هيأت له الاقدار اعتلاء عرشها. وكجندي نظر الى مشاكل الامبراطورية من زاوية عسكرية بالدرجة الاساس، فكان همه حماية حدود الامبراطورية أولاً قبل كل شيء.

عمل دقلديانوس على تقوية مركز الامبراطور ، فجرد فجرد مجلس الشيوخ من كل ما تبقى له من صلاحياته، ولم يعد هذا المجلس سوى مجلس بلدي يخص العاصمة روما، وصارت السلطة مركزة بيد الامبراطور يساعده في الحكم جهاز إداري ضخم، وكان الامبراطور بواسطة ذلك الجهاز يشرف على كل جزء من أجزاء الامبراطورية، وبهذا قضى دقلديانوس على النظام الذي أوجده أوغسطس والذي فيه كانت السلطة موزعة بين الامبراطور ومجلس الشيوخ لقد ذهبت كل مظاهر النظام الجمهوري التي تشبث بها الاباطرة قبل دقلديانوس وحل محلها نظام استبدادي صريح، حاول إعادة الهيبة الى الامبراطورية من ذلك أنه أنشأ بلاط فاخراً أحاطه بكل مظاهر الفخامة والفخفخة.

رأى دقلديانوس بثاقب بصره ان الامبراطورية أوسع من أن يحكمها رجل واحد، لذا قسم الامبراطورية الى قسمين، وقسم كل واحد منهما الى جزئين، يحكم الواحد منهما شخص يحمل لقب امبراطور أو أوغسطس يساعده شخصان في حكم الجزء الذي تحت سيطرته يطلق على كل واحد منهما لقب قيصر، وكانت الاجزاء الاربعة بدورها مقسمة الى مناطق وعددها مائة منطقة متساوية في المساحة تقريباً، وكان حكام المناطق يعينون ويعزلون من قبل الامبراطور من قبل الامبراطور. وعلى الرغم من ان السلطات المحلية قد ضعفت كثيراً بسبب هذه الاصلاحات فإن الامتيازات الشخصية استمرت إذ ان كبار موظفي الحكومة كانوا قد كونوا طبقة خاصة يحمل أصحابها ألقابا فخمة الى جانب أولئك الموظفين الكبار جماعة الشيوخ، لقد كون هؤلاء طبقة متميزة كان عدد افرادها في تزايد مستمر، نتيجة قيام الامبراطور بمنح بعض الاشخاص امتيازات خاصة كالإعفاء من الضرائب وبعض الواجبات الاخرى، واقطاعهم الضياع والاراضي، مع ان

الوظائف الحكومية لم تكن وراثية ولكنها اصبحت كذلك وبقية الفئات والطبقات كانت في اوضاع اجتماعية غير قابلة للتبدل والتغيير.

وأعاد دقلديانوس تنظيم الجيش وقد استمرت عملية تحصين المدن الداخلية، واصبحت فرق الحدود مقيمة وصار اصحابها من ذوي الامتيازات ومن كبار الملاكين ولجأ دقلديانوس الى انشاء قوة جديدة متحركة يمكن نقلها بسرعة من مكان الى اخر، في أي جزء من أجزاء الامبراطورية قد يتعرض الى الخطر. ولتوفير ما يقارب من (٥٠٠) ألف جندي وهو ما تحتاجه الامبراطورية ، واضطرت الحكومة الرومانية تشجيع الجرمان والبربر والعرب على الانخراط في جيشها، والواقع هناك قبائل جرمانية بجملتها سمح لها باجتياز حدود الامبراطورية، على اعتبار انها حليفة للإمبراطورية، وانها تكون جزء من قوة دفاعها.

وأراد دقلديانوس اصلاح الاوضاع الاقتصادية في الامبراطورية فحاول السيطرة على العملة وتثبيت قيمتها وتحديد اسعار المواد الغذائية وايجاد نظم جديدة للضرائب والسيطرة على جميع المشاريع الاقتصادية التجارية والصناعية والزراعية. وكانت الازمة المالية هي المشكلة الاقتصادية المباشرة التي واجهت الامبراطورية الرومانية وتتلخص في زيادة مصروفات الحكومة على وارداتها وذلك نتيجة الجهاز الاداري الضخم والجيش الروماني الكبير من جهة وسوء نظام الضرائب من جهة أخرى. نجح دقلديانوس في تثبيت قيمة العملة ولكن النقود الذهبية والفضية بقيت شحيحة وقليلة، ومن اصلاحات دقلديانوس المهمة تنظيم اصحاب الحرف المختلفة في نقابات وكان الغرض من ذلك إجبار كل نقابة على انتاج مقدار معين من الوحدات الصناعية وذلك لغرض الحفاظ على كمية الانتاج الذي عانى من نقصاً مستمراً، وتنظيم اصحاب المهن في نقابات كان ييسر امر جباية الضرائب من أفرادها، فقد صارت كل نقابة ملزمة بدفع مقدار معين من المال الى الحكومة وهي بدورها تجمع ذلك المال من منتسبيها، وأجبر دقلديانوس الابناء على امتهان نفس المهن التي كان يمتهن بها آبائهم، لهذه الاجراءات أثرها في تخفيف تلك الضائقة المالية التي عانت منها الامبراطورية، ولكنها اضرت بالمشاريع الفردية وأدت على المدى البعيد الى ركود الحياة الاقتصادية في المجتمع الروماني.

وامتدت يد دقلديانوس الى الريف ولكن قوة كبار الملاكين هنا حدت من سلطة الحكومة وحالت بينها وبين احداث أي تغيير جذري في وضع الريف الروماني، لقد كان الفلاح الروماني الحر يؤلف ركيزة مهمة من ركائز المجتمع الروماني، كما كانت ضريبة الارض مصدراً اساسياً للدخل الحكومي وكل ما فعلته الحكومة عندما تدهورت الزراعة وتناقصت الضريبة انها منعت الفلاحين الاحرار من ترك اراضيهم، وأوكلت جمع الضرائب منهم الى كبار الملاكين واحتفظ هؤلاء بالجزء الاكبر من الضرائب التي تم جبيها من الفلاحين لانفسهم، وبمرور الزمن اسندت الحكومة الى كبار الملاكين واجبات

حكومية أخرى كحفظ الأمن المحلي والقضاء، وهيمن بعض كبار الملاكين على مقاطعات واسعة جداً تمتعوا فيها بنفوذ كبير للغاية، وبذلك صاروا حكام مستقلون فعلاً وهؤلاء هم بعض اسلاف النبلاء الاقطاعيين الذين سادوا في اوربا خلال عهد الاقطاع من العصور الوسطى. وبعد الاطلاع على اصلاحات دقلديانوس يلاحظ انها كانت حلولا عملية لأوضاع حرجة تتطلب حلولاً سريعة ومؤقتة وكانت النتيجة جيدة في بعض الحالات فقد أعيد الأمن الى أغلب أجزاء الامبراطورية وحفظت الحدود لمدة قرن آخر من الزمان.

الامبراطورية في عهدي قسطنطين الكبير و ثيودسيوس:

أعتلى قسطنطين الكبير العرش في مطلع القرن الرابع الميلادي (٣٠٥-٣٣٧)، وكان من اعظم الاباطرة من التاريخ الروماني، فقد نجح في بسط سيطرة الدولة على أجزاء الامبراطورية، ويعد الاعتراف بالمسيحية وبناء مدينة القسطنطينية من أهم إنجازاته، وبالنسبة للامر الاول فقد أعترف قسطنطين بموجب مرسوم ميلان ٣١٣م، بالديانة المسيحية وبذلك اصبحت هذه الديانة بمستوى باقي الديانات الاخرى في الامبراطورية الرومانية وبذلك قضى على مشكلة كانت تسبب المتاعب للامبراطورية.

أما بالنسبة الى بناء عاصمة جديدة للامبراطورية في الشرق، فقد قام ببناء هذه العاصمة محل بلدة بيزنطة القديمة على الضفة الاسيوية للبسفور عند اتصاله ببحر مرمره وزادت اهمية الاقاليم الشرقية للامبراطورية وكانت تسير هذه المدينة نحو الازدهار على العكس من روما، وفي أواخر القرن الرابع الميلادي أعتلى العرش الامبراطور ثيودسيوس (٣٧٨-٣٩٥م) في ظروف عصيبة بعد معركة أدرنة التي دمر فيها الجيش الروماني أمام الغوط الغربيين واستطاع ثيودسيوس ان يعيد الثقة الى الامبراطورية حينما تم فصل الامبراطورية الى قسمين منفصلين حينما قام ثيودسيوس بتقسيم امبراطوريته بين أبنائه فقد تقلد هونوريوس عرش روما بينما شقيقه أركاديوس تقلد عرش القسطنطينية.